برهان العارف

بين جدران غرفة صغيرة في بلاد غير بلادي، غربة مكان وثقافة ودين، كتبٌ كثيرة وشهاداتٌ معلقة في كل مكان، مكتوبٌ فيها اسمي، واسم أبي وجدي.. أما أنا فوحيد في تلك الغرفة..وليس معي أي أحد!

ولكم تمنيت أن أتخطى حدود الزمان والمكان والمعقول والمستحيل فيخرجُ أبي وجدي أمامي جسدين حقيقين بدلًا من اسمين على ورق.. أصافحهما وأعانقهما فيشفي ذلك صدري إلى حين.

ربما يشير إلي بالإصبع كل من يعرفني في الجامعة.. هذا عارفُ الفلسطينيُ الذي يبهر الجميعَ بأبحاثِه أما أنا فليلي طويل.. وآهٍ من طولِ ليلِ الاغتراب!

كنت ألعب أنا وإخوتي وأولادُ عمي في بيتِ جَدي، أقربهم إليَّ نسيم، نديد العمر ورفيق الصبا.. نجري ونتصارع ويصرخ جدي على شجارنا الكثير، فنضحك ويضحك ونعود للَّعب مرة ثانية.

ينادينا يومَ جمع الزيتون وكأنما يؤذن لعيد.. كيف لشُجيرات الزيتون كلُ هذا الفرح ياجدي؟!

يجيب أن الزيتون شجرةُ مباركة.. أن شجرة الزيتون روحٌ وحياة.

أنا الآن أكمل دراستي في جامعة في الغرب، ونسيم في أرضٍ أخرى من أراضِ الله.. فرقتنا الليالِ القاسيات.. هل عسى يجمعنا يوم ذو نور في أرضٍ نلتقي فيها، كما جمعنا بستان الزيتون في بيت جدي؟

قصف وقنابل ونيران أخرجتنا من ديارنا بغير حق، أجلانا الاحتلال من بيوتنا.. خُلعنا من أرضنا تمامًا كما خُلعت شجيرات الزيتون من الأرض.

آه من صراخك ياجدي على شجر الزيتون.. لن أنسى بكاءك ماحييت.

ألمحُ ونحن نركض هربًا من النارِ؛ كُتَّاب الشيْخِ عبدِالقادر ركامًا وحجارة.. تُرى ماذا حدث له؟!

إلى بلدٍ عربيٍ نرحلُ مع أبي وأمي، ونُخلف وراءنا حسرة لايعلمها إلا الله.

لماذا تحاصرنا الذكريات أحيانًا وتحيطنا، وكأنما العمر قد سُطر بمحبرةٍ تملؤها الدموع..

ياويلي.. ربما محبرةٌ تملؤها الدماء

كان أبي معلمًا، وكم حبّبَ إلينا العِلم.. يقول دائمًا لاأملك من الدنيا إلا الكُتب وأنتم.. لايعلم أحد أني ولده إلا ويقول يالحظك يا ابن الأستاذِ باسل.

أحبك يا أبي؛ أكتبها للأوراق.. ياليتك تسمعها بلساني وأقولها لك رأي عين.

لا أنسى يوم ودعتني قبل السفر، وعينيك يملؤها حنانٌ يكفي كلَّ أبناء العالم.. حظوت به وحدي وأنا بين يديك.

تقول لي: ستلقى من الدنيا كثيرًا ياعارف.. فلن أُوصيك بخيرٍ مماوصى به رسول الله "فاحفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك".. قد تنساني يومًا فأنا لا أشاهدك.. ولكن ياولدي لاتنس الله هو شاهدكَ ورقيبكْ.

وأمسكت بيديك جنبي رأسي ودعوت لي "اللهم اجعل له برهانًا من لدنك".

كنتُ في حالةٍ لمْ أدرك فيها معانِ دعواتِ أبي.. ولكنّي أشعرُ بها كطاقةِ نورٍ في صدري تنيرُ أشدَ ظلمة.

أعرف أن كلَّ مولودٍ جديد مختومٌ له منذ الأزل بالسعادة أو بالشقاوة، وأرى أن كل فلسطينيٍ أو ربما عربيٍ؛ مختومٌ له بخاتمٍ جديد اسمه (الغربة).

ما أشبه الغربة -بلا عائلة- بالقبر.. نفسٌ واحدة واستدعاءٌ لماضي.

مضت سنوات ونحن نقيم في الخليج...حتى كان العام الذي حصلت فيه على الثانوية العامة -الأولُ بلامنازع- تنهالُ عليّ منحُ إكمالِ الدراسة في الخارجِ وأقبلُ إحداها وأودعُ أسرتي لأبدأ فصلًا جديدًا من كتابِ غربتي التي لم أخترها بالأمس، ولا اخترتها اليوم.

أنا الآن بلانسيم، بلا إخوتي، وبلا أمي.. ياليتك هنا ياحبيبة تُصلين في مكانٍ قريبٍ فأطمئنُ أنَّ دعاءَك لن يُرد.. دعاءُ الأم كهفٌ يأوي إليهِ الحيرانُ.. فيهتدي.

ليس بين يديَّ إلا بِضع أوراق أدون فيها ما يُثقل كاهلي، علَّها تحملُ عني مالمْ يسَعه صَدري.. أعيدُ قراءتها مراتٍ ومراتٍ فأبكي؛ وكأنما أحيا الألمَ من جديد.. فأمزقها وألقيها وأقول اذهبي بلا رجعة.. فأستطيع النوم كي أبدأ يومًا جديدًا.

أكتب هذه الليلة وأكتب؛ فأنام من شدة الوجد في مكاني.. فأراني أركض؛ فأوشك أن أقع في حفرةٍ كبيرةٍ، فأرى في ناحيةٍ أبي يدعو، وأراني صغير السن أحاور الشيخ عبد القادر وهو يعلم القرآن فأقول: ياشيخ ماعبوسًا قمطريرًا؟، فتمتلئ عيني الشيخِ بالدموع، ويقولُ: يارب يقيك ياولدي يوم القيامة، فما أن يراني أبي والشيخ إلا يأخذان بيديَّ كلٌ من ناحيته، فأفيق على تنميلٍ بذراعيَّ وصوتُ أذانِ الفجر من المنبه.

أقومُ وأصلي وأسأل الله ستره، وأدعوه إلا نجيتني يارب.

أجلس لأحتسي كوبًا من الشاي الساخنِ وأتهيأ للنزولِ إلى الجامعة، وإذ بالباب يُطرَقُ طرقًا متقطعًا، أتعجبُ من يطرقُ البابَ في ساعةٍ مبكرةٍ من الصباح.. أفتحُ فإذا بفتاةٍ تتلوى في الأرض تصرخُ من شدةِ الألم، بالكادِ أفهم ماتقول:.hospital

لا أحد يمكن أن أستعين به.. حمَلتها في السيارةِ إلى أقرب مستشفى، بالكاد عرفتُ أن اسمها لورا، وأنها تسكن وحيدة في شقةٍ مجاورة.

في المستشفى القريب تسألني موظفة الاستقبال عن علاقتي بها فأجيب مُمْتعضًا أنها صديقتي، تلك التي لم أرها قبلَ ساعةٍ من الآن!

في قِسمِ الطواريء تُجرَى جراحةٌ للورا، تخرجُ ولاتزالُ نائمة.. وأنا لاأزال في الانتظار.

يمضي الوقتُ بعد إجراء العملية ويجيء وقتُ الخروج؛ أوصلها للمنزل، وأرجع لبيتي أنام، لقد كان اليومُ طويلًا جدًا، ولديّ العديدُ من المحاضرات في اليومِ التالي.

يومٌ طويلٌ لم أخطط له، ألقي ملابسي على كرسيّ الغرفة، وألقي بجسدي المُنهك على السرير.

أرى في منامي مرةً أخرى ذاتَ الرؤيا؛ أبي، الحفرة، الطفل، والشيخ عبدالقادر.. وأصحو فزعًا أقول ياالله.. إلا نجيتني ياقريب!

يومي عملٍ طويلين جدًا، أرجع متعبًا جدًا، بالكادِ أنام وأصحو ليومٍ جديد.

الباب يطرقُ من جديد؛ أفتح الباب هذه المرة.. إنها لورا واقفة على قدميها.

مرحباً لورا.

أهلاً دكتور عارف، عرفتُ اسمك من الممرضة.

شكرًا لما فعلتَ معي، لقد أنقذتَ حياتي.

لاشكرَ على واجبٍ يالورا، هل أنتِ أفضل الآن؟

نعم؛ أقف على قدميّ كما ترى

الحمد لله.

هل تقبل دعوتي على العشاء؟

لعل هذه هي عينُ الحفرة ياعارف!

ثوانٍ ثقيلة أبحثُ فيها عن ردٍ مناسب، لاأحبُ أن أكونَ سخيفاً!

آسف يالورا.. لاأستطيع.

بنظرة متعجبةٍ تقول:

ألجأ إليك فتنقذ حياتي، بينما يرفض الكثيرون أن يأتوا لمساعدتي.. بل ويظنون أنني أمزح!

ثم لاتتركني حتى تطمئن عليّ

توصلني للمنزل

والآن ترفضُ دعوة فتاة منفردةٍ على العشاء

ظننت أنك ستأتي وتجيب دعوتي لعشاء لطيف.

أنت شخصٌ غريبُ الأطوار.

أنا مسلم يالورا

Terrorist؟

يبتسم الدكتور عارف ويقول: مارأيك أنتِ؟

لاأظن ذلك، في ظنِّي أنك رجلٌ طيب.

كل مافعلته معك يأمرني بهِ ديني؛ أنتِ جارتي يالورا.

كل علامات الاندهاش على وجهها مرسومة مرة أخرى.

على كلِ حال أتيت لأشْكُرك.. إلى اللقاء.

هناك أحداثٌ لايرجع فيها الإنسان كما كان قبل حدوثها، لايرجع أبدًا كما كان.

تعودُ لورا إلى المنزل، الأمرُ غريبٌ، يشغل تفكيرها كثيراً.

كيف كان الدكتور عارف على ذلك القدر من الإحترام! شاب مثقف، وسيم، ومغترب

يعيش وحدهُ، تدعوهُ فتاة جميلة لصُحبتها، فيرفض! بل ويقولُ ديني! كلُ مافي ذهني عن الإسلامِ أنه دين الهمجية، دينُ العنف؛ الصورةُ التي في ذهني على مايبدو غيرُ صحيحة! هل هناك وازعٌ يحمله على فعلِ كلِ ذلك! وكأنّما هناك أحدٌ يراقبه! هل هناك دين يجعلُ الأفعال تُملى من تعاليمه؟

لا أعرفُ لماذا شعرتُ برغبتي في الذهاب إلى المعبد، لم أزره منذ وقتٍ بعيد، علاقتي بالدين سطحية جدًا، مجردُ صلوات أمامَ بعضِ الصور، يذهب أثرها عند أول قدمٍ تخرجُ منه، زرته وكالعادة.. كأن شيئاً لم يكن!

لورا مصورة فوتوغرافية يهودية، كثير من التصوير للسهرات والموضة وعروض الأزياء، الجسد هو المادة الغالبة.

لم أعد أطيق هذا النوع من التصوير، أصبحت أشعر أنه شيء مقزز للغاية، مالذي دهاك يالورا؟ ياليتني لم أقابلك يا عارف، ياليتني لم أطرق الباب ليلتها عليك!

تمضي عدة شهور ولورا المصورة لم تعد كما كانت، تعتذر عن كثير من الأعمال، سقوطها وحيدة تلك الليلة وكلام عارف كان لهما أثرٌ كبير.

تعمل لورا ضمن فريق للتصوير، في فريق التصوير شاب مغربي مسلم يُدعى حسن.

جون: أتمنى لو أتذوق الطعام المغربي ياحسن.

لورا ضاحكة: لاتحب شيئًا حبكَ للطعام ياجون!

حسن: ولم لا ياعزيزي، سأجعل زوجتي تعد عشاءً بأطباق مغربية، فلنجتمع في نهاية الأسبوع في منزلي.

تذهب لورا وفريق العمل إلى بيت حسن بوعدٍ على مائدة طعامٍ شهية.

تستقبل زوجة حسن الضيوف استقبالًا حميمًا وتصافحُ لورا بسلامٍ حارٍ، فهي الفتاة الوحيدة ضمنَ الفريق.

يضحك الرفاقُ وتذهب لورا لتساعد زوجةَ حسن في إعدادِ مائدة الطعام.

في المطبخ روائحُ شهية، وصوت مذياع.

لورا: يبدو أنك طاهية ماهرة ياسناء؛ رائحة الطعام رائعة.

وصوت المذياع هذا مؤثر جداً، ماذا يقول؟

سناء مبتسمة: هذا القرآن الكريم يالورا، هلَّا حملتِ الأطباق معي نعدُ المائدة؟

بالطبع.

الكل يأكل بنهم شديد، الطعام ذكيٌّ جداً.. آه ياحسن، تأكلُ كل يومٍ من ألذ الطعام؛ إنك لذو حظٍ عظيم!...الكل يضحك، ولورا شاردة الوجه!

يبدو أن الطعام لايروق لك يالورا.

لا على العكس..الطعام طيبٌ جدًا.

تمضي السهرة وقد كانت لطيفة، جو الأسرة مفقودٌ عند لورا، تعيش وحيدة منذ وقت بعيد.

تصافح لورا سناء، وتهمس لها منفردة: هل أستطيع أن آخذ نسخةً من القرآن؟ لقد كان صوت المذياع مريحًا للغاية.

بالطبع حبيبتي، إليكِ هذه النسخة المترجمة إلى الإنجليزية، ومعها أسطوانة مسموعة.

هناك أناسٌ حين تلتقي بهم؛ لاترجع كما كنتُ قبل لقائهم..لاترجع أبدا.

تسرع في الذهابِ للمنزل تلكَ الليلة، تفتحُ الكتاب فتقرأ: "الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ (١) رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ"

نزلت هذه الكلمات على قلبها كمطرٍ على أرضٍ قاحلة، ظلَّت تبكي وتبكي إلى أن ذهبت في سباتٍ عميق.

المشاهد تُرتبُ في القلب، مشهداً تلوَ الآخر، تماماً كاللقطاتِ الفوتوغرافية، يكمل بعضها بعضًا ضمنَ مشهدٍ كبير، يكشفُ حقائقَ مشوهة في الأذهان، كل المطلوب منك أن تفتح نوافذ قلبك للنور.

وتتوالى اللقاءات بين لورا وسناء التي تجيب على كثيرٍ من استفساراتها ببشاشةٍ وسعةِ صدر، تلك اليد التي تنقذك من الغرق، كيف لك أن تتركها، هل تستطيع؟

تمضي عدةُ أيامٍ، حتى يقترب يوم تصوير حدث هام في مركزٍ قريب، الموعدُ يوم الخميس القادم.

المكان هو المركز الإسلامي القريب، يقيم حفلًا ختاميًا يكرمُ الطلبة المسلمين الدارسين، وفقراتٍ أخرى.

يبدأ الحفل بآياتٍ من القرآن الكريم.

ماأعذب القرآن، لورا دمُوعها تنهمرُ من جديد.

الفقرة الأولى: تكريمٌ للطلبة المتفوقين من المسلمين في عدة مجالات، يقدمُ الفقرة الدكتور عارف باسل!

التفتُت لورا عندما سمعت الاسم، تلتقطُ عدة صُورٍ ناحية منصةِ التقديم، بابتسامة خفيفة امتزجت بدهشة كبيرة، التفتَ إليها وهوَ يقدم فقرته.

لا أدري لماذا نبض قلبي كذلك عندما رأيتُ لورا؟ مابكَ ياعارف؟ ظننُتك ياقلب لن تنبض هكذا لكثرة مابك من جِراح.

الفقرة التالية: نطقُ الشهادة لخمسة دخلوا في الإسلام، شيخٌ نديُّ الوجه يُمليهم إياها، ومع كلِّ كلمة أشهد.. تُرفع الرؤوس، وتُذرَف الدموع، ولم لا! إنه يوم الولادةِ الجديد، يوم الولادةِ الحقيقي! والآن مع

نطق الشهادة للورا سباستيان..

الشيخ: سأنطق الشهادة باللغة العربية ورددي خلفي يالورا

"أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله"

ببشاشة وفرحة جمة، ينظرُ حسن وسناء إلى لورا، ومعهم الدكتور عارف، الذي اعتلت قسماته الدهشةُ من جديد.

تستقبل لورا الرفاق بعد انتهاء الحفل، على بعد منهم، الدكتور عارف يأتي مهنئًا، تشكره وتقول لقد أنقذت حياتي مرتين، يبتسم ويقول: مرتين؟!

نعم؛ المرة الأولى حينما أخذتني إلى المشفى، والمرة الثانية حين رفضت دعوتي وقلت لي (ديني يأمرني بمافعلت معك)، أشكرك كثيرًا.

بالقرب منهما حسن وسناء يصافحان الدكتور عارف، الذي لم يمض وقت طويل حتى أصبح أربعتهم أصدقاء.

لم يمض وقت طويل حتى تزوج عارف ولورا، لي عندك عشاءٌ يالورا.. أريده الآن، تضحك لورا: الآن يحقُ لنا، سأعده لك.

في المركز الإسلامي يدخل عارف وفي يديه لورا، يحضران ندوة، إنها سورة يوسف، الشيخ: لقد كان هذا برهان يوسفَ ياسادة، لقد رأى يعقوب يعضُ على يديه أو أنطق الله له طفلاً في المهد أن لاتفعل يايوسف، أو أراه الله نعمه، هكذا كما تقول التفاسير، كونوا على يقين أن لكل عارفٍ بالله برهانُه، ابحث عن برهانك حتمًا ستجده.

ينظر عارف للورا مبتسمًا ويقول في نفسه: لقد أصابتني دعوة أبي يوم سفري (اللهم اجعل له برهانًا من لدنك).

تمت

بقلم / الشيماء قناوي